هجرة النبى ﷺ
وأصحابه إلى المدينة

بدء تألف الأنصار للدعوة الإسلامية :

كانت يثرب ، وهى التى اشتهرت باسم المدينة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادهما وأحفادهما من التنافس مالا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يجاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل لجاليات يهودية هاجرت من مواطنها ببلاد الدولة الرومانية هربا بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعاث على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قادتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فأرسلوا وفداً منهم تحت قيادة إياس ابن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا فى عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبى ﷺ خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وقد أرسلنى الله إلى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله ﷺ لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه دينا لهم ، وقالوا لرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فإن يروا رأينا فى الإسلام فلا يكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدوه باللقاء فى الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم إلى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبى ﷺ ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ،

واتفقوا معه على الإسلام ، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه فى معروف . وقد سمى هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولما أزمعوا العود إلى يثرب أصحبهم النبى ﷺ رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدرى ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الإسلام فى القبيلتين ، ويدعُوَا إليه ، ويعلّما من يدخل فيه .

فنزل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للإسلام . فلما نمى الخبر إلى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين يفتنان ضعفاءنا لتزجرهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه .

فلما حاذاهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كان لكما بنفسيكما حاجة .

فقال له داعية الإسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فجلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلما .

فلما عاد أسيد بن حضير إلى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يتمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فإنه لما عاد لقى رجالا من بنى عبد الأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما تعُدُّوننى فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه ، وسرّعان ما عم الإسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالى لعام البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبى ﷺ مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلا عند العقبة ، فأمرهم أن يتلطفوا فى المجىء ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لكى لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا إلى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافاهم رسول الله ﷺ ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخى محمدا فى منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا فى ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، ومانعوه ممن يتقصده بسوء ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل إليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبى ﷺ : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التّيّهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهودا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم ﷺ وقال : بل الدم الدم ؛ والهدر الهدر . أى إن طالبتم بدم طالبت

به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المبايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثنى عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والتفت إليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهالهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شيء فى ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أُبَيّ ، ما كان قومى ليفتاتوا علىَّ بشيء من مثل هذا .

يثرب معقل الإسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج إلى مدينتهم شاع فيها الإسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من ممالأة أهلها للنبى ﷺ صحيح ، وأدركت ما يبتنى على إغضائها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت فى التضييق على أصحابه لتحملهم على الانفضاض من حوله . فأمرهم ﷺ بالفرار بدينهم إلى المدينة ، فأخذوا يتسللون إليها خفية ، حتى لم يبق فى مكة غير أبى بكر وعلى وصهيب الرومى وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبى ﷺ : على رِسْلك فإنى أرجو أن يؤذن لى . فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم . فمكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ فى إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السَّمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش إلى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكتف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تُفضى لا محالة إلى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالاتها إلى الاجتماع للمشاورة فى دار ندوتهم ، على عاداتهم فى الشئون الهامة ؛ وكانت هذه

الندوة دار قصى بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتآمرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كى نستريح منه .

فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجموع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عنتا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نحبسه حتى يأتيه الموت .

فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجىء أنصاره بيثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأى عندى أن تشترك جميع بطون قريش وأفخاذها وعشائرها فى قتله ، بأن نندب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديته . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأى ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله إلى رسوله بما بيّته له قومه ، وأمره أن يهاجر إلى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية فى هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احْتَوَشَتْها من محاولات القرشيين فى منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف فى هذا الموطن هنيهة للنظر فى التعليلات التى أبديت لتفسير الإسلام الفجائى لقبيلتين لا تمتان بسبب إلى أية دعوة دينية ، ولا يعنيها من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا يعنى غيرها . فإننا نرى أن تلك التعليلات ، حتى الإسلامية منها ، لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة فى هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخِلابات الكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية

والاجتماعية له مشبها ، فإن كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية ، فهو آية يزيدها مر الأيام جلالا وعظما . ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل إلى عناصرها الأولية .

وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السِّريان فى الديانة الإسلامية ، وفى سرعة تلقف النفوس لها ، والتأثر بها إلى أقصى حدود التضحية ، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى ، وهو الإسلام ، ومن صحة رسالة الداعى إليه ، وهو محمد ، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى .

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم : إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب ، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم . فلما بعث النبى ﷺ ودعا للإسلام ، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم ، وقال بعضهم لبعض : هلم بنا إليه ، لا يسبقنا الاسرائيليون إلى اتباعه . ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا إلى تلبية ندائه ، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه .

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة ، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الإسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلل طبيعية ، لا يسلم من النقد ، بل لا يقوى على احتماله ، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الإسلام ، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه ، إلا بعد أن مضى على إعلان النبى ﷺ له نحو ثلاث عشرة سنة ، فأين كانوا من الإسلام طَوال هذه المدة ، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم إليه اليهود الذين توعدوهم به ، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة إلى قبول دعوته ، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة ؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبى الجديد على مناهضيهم ؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبى فى بلاد العرب ، وأنهم يعولون على الانضمام إليه ، والاستنجاد به ، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم إلى الدخول فى دينه ، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم

كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم ؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله ، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود ، ويبادرون إلى الدخول فى دين جديد ، وخاصة إذا كان الداعى إليه مضطَهدا ، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟

كان ميلهم إلى الدخول فى طاعته ، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقووا بهم على أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبى نفسه كان يطلب إليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا عتاد يمكن الاعتماد عليهما ، فممّا يستحيل تعقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه يوقعهم فى حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء فى الوقت الذى كانوا فيه يريدون الاستكثار من الأنصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبى ﷺ قابلهم ودعاهم للإسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا إلى الإسلام للاستنصار بالنبى ﷺ على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء اليثربيين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول فى طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ما جريات الحوادث على خلافه .

فأنى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعدُ ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود فى بلادهما ؟ وأنّى لآحادها أن يحصلوا إيمانا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، فى سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد فى طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر فى تعليلات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التى كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال

عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأى ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الإسلامية رأتا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلا فى الدين الجديد ، ويعودا إلى سالف صفائهما بسببه ، فأقدما على ما أقدما عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهمه ملاشاة الدعوة الإسلامية من سائر العرب ، فتقعا فى شر مما هربت منه ، وتصبحا هدفا لسخط العرب واليهود معا ؟

أما توهّم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنهما فمستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسبق حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهى القيّمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعدها بالشر ، ويستهوى الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضراءها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل إلى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم فى سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال فى هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج فى الإسلام فجأة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام إلى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق فى الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكرهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتى كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا إلى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبيلية إزاء أمم العالم ، وتاقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات فى سلم

الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعوة دينية ، أو نعرة جنسية ، فلما بعث النبى ﷺ ودعا إلى التآلف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا فى حالة يرجون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه .

ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم إلى تطلب غذاء روحى أرق مما لغيرهم من سائر العرب . فإذا كانت قريش على كثرة صلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها إلى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لها حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير فى الشئون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المتمدنة أمامنا متى وقعت فى حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشئون جانبا ، حتى يجىء عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متلمس التعليلات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج بَرِمتا باليهود إلى حد تلمس المخلص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الإسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحى كانوا يرجون المخلص بالدخول فى الإسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم إلى التورط فى منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن فى تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيّم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث فى العالم الإنسانى انتقالا جديدا ، بإرسال خاتم للمرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا فى إعجاز ، فبث فى رؤوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول فى عالم التطورات العقلية ، فقبلتا أن تضطلعا بعبء حماية الدعوة الإسلامية ضد الأبيض والأسود ، أى ضد العالم كله ، وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلهما خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى فى ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لارتعدت فرائص أشجع أبطالها ؟ بل ما هذه التضحية التى لا يقبلها إلا من وصل الإيمان إلى أعماق قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبى ﷺ إلا لحظات مختلسة فى الليالى المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خيره ، فما الذى جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ؟

اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٥٩ هـ

هجرة النبى ﷺ إلى المدينة

انتهى أمر قريش إلى التآمر على حياة النبى ﷺ على حالة لا تمكّن عشيرته من الثأر له ، فتكتفى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم فى أن يشترك فى ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأفخاذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء فى العمل من فورهم .

فأنبأ الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللحاق بأصحابه فى المدينة ، فجاء من ساعته إلى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصدّيق براحلتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

ثم ترك أبو بكر النبى ﷺ ، مواعدا إياه التقابل فى جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرهم ، فأمر النبى عليا أن يرقد فى سريره ، موهما أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذا يسيران جادّين حتى انتهيا إلى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا فى أثناء ذلك ينظرون من خِصاص الباب (أى فُرَجه) فيرون رجلا على سرير النبى ﷺ وهو نائم مسجّى ، فيظنونه هو فيطمئنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فتنبه النائم وإذا هو على بن أبى طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فما زالوا يسيرون حتى انتهى القائف إلى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا إلى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان فى أثناء ترددهم على

الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبى ﷺ وهدأ روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [١] . وقد صدقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقف لقن (أى حاذق سريع الفهم) ، فكان يُدلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيتسمّع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما وعاه . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شىء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بسفره إليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك فى ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام ﷺ بقباء ليالى أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المكيين واليثربيين ، وقد دُعى الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبى ﷺ إلى المدينة فاستقبله أهلها نساءً ورجالاً بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسيرون خلفه مشاةً وركباناً يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٠) .

وأدركته صلاة الجمعة وهو فى ديار بنى سالم بن عوف ، فنزل وصلّاها ؛ وهذه أول جمعة صلّاها جماعة ، وخطب فيها ، ﷺ .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للنزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد بن زيد ، وهو الذى عُرف بعد بأبى أيوب الأنصارى ، وكان من بنى عدى بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده .

وفى المحل الذى أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل إليه بعد أن لبث فى دار أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب فى إيواء المهاجرين حتى حكّموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبى ﷺ ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فإنه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريِّق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فى عشرة الخمسين ثم آلت إلى عشرة الستين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها إلى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادّات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فإن من الناس من يأنسون إلى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم إلى المهاجرة مرّتين ، ضنًّا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمّتها على الهجرة إلى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبى على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة

بنفسه والمهاجرة إلى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيّه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخّره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته .

فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا إليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] .

وهذه الثقة من النبى ﷺ فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة إلى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شِرَّة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبى ليلحق به ، إلاّ والخطر مُحْدق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبى ﷺ بربّه كان فى غار ثور ، وقد احْتَوَشه من أرسلتهم قريش للّحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصدِّيق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت إليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم كما رآه قراؤنا فى الآية المذكورة فى هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفُلْج ، وهذا لا يكون بغير وحى .

ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى إليه الأثر ، يأخذه

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبيلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم [١] ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاغراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدى الكَلَب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكنا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما ولياليا حتى يتحققوا من خلوه ، وإلا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم إلى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفى بهذا ، ولكنا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كَبْكَبة [٢] من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فُسّر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدىّ دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا أتجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ إلى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى ﷺ حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها إلى ما يمكّن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى إلى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

---

(١) القائف : من يتتبع آثار الأقدام لمعرفة أين انتهت . وهو يستعمل فى تعقب الهاربين ، جمعه قافة . وقيَّف وتقيَّف مثله .

(٢) الكبكبة : الجماعة من الناس المتضام بعضها إلى بعض .

بقى علينا أن ننظر فى النظام الذى أقامه النبى ﷺ لجماعته ، وفى الأصول التى وضعها للقيام بمهمته ، وفى المنازعات التى ابتنت على دعوته ، والحروب التى أثارتها الوثنية لمعاكسته ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه ﷺ فى بناء دولته . كل هذه المناحى ستؤدينا إلى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرينا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، صفر سنة ١٣٥٩ هـ .

نشوء الدولة الإسلامية
بين العوامل المختلفة

لما وصل النبى ﷺ إلى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الإسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب فى عشية وضحاها لم تشهده مدينة قبلها فى الأرض ؛ وأى مدينة جاهلية فى أية بيئة من بيئات المعمور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله فى عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، ويحل محله دين جديد ، ليس الداعى إليه بملك عظيم يرجى أن تعمهم عطاياه ، وتحميهم من أعدائهم جيوشه وسراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبتْ به دياره ، وعاداه قومه ، ولحق به من شيعته رجال لا يملكون شروى نقير ، حاملا إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأى شىء تفرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وجَزَر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم إلى قريش لتستنصروا بها ، أفتعودون وقد استجلبتم سخطها ، واستهدفتم حربها ؟ وكنتم تستنجدون البعيدين عنكم ، على عدو كان يساويكم عددا وعدة ، أفتقلبون وقد أثرتم عليكم العرب كلهم ، فماذا ترجون من وراء هذه المغامرة التى لم تندفع فى تيارها جماعة قبلكم إلا باءت بالويل الوائل ، والهول الهائل ؛ قلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق فى الأرض ، وإما الشهادة فى سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تعليله لو حدث لرجل واحد ، فما ظنك وقد حدث لقبيلتين متحاقدتين ؟ فى هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبى ﷺ حكومته (النبوية) ، وهى طراز من الحكومات لا تقوم إلا فى عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحى الإلهى والشورى ؛ الوحى فى الأمور الكلية التى تتأصل فيها الأصول ، وتتدعم المبادئ الأولية للدين والدولة المستقلين ، والشورى فى الأمور الجزئية التى تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة على نظام الحكومات

الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبيُّ ﷺ أصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألتكم . فكانوا يتباحثون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فيعدل عن رأيه إلى رأيهم .

على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الحوادث التى يقتضيها قيام جماعة من أول تكوُّنها إلى أن تصل إلى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطرأ مشاكل ، تارة تصادف حلولا ، وطورا تؤدى إلى مآزق تصطهر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الحناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج إليه كل نفس بشرية فى تكملها ، وكل هيئة اجتماعية فى تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١) .

فالباحث الاجتماعى يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواةِ أكبر أمة عالمية نالت من زعامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية الفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها إلى اليوم . وهذا ما سنقوم به فى هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلمى ، وفاء بما شرطناه فى مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبى ﷺ من يثرب فى جماعة قبلت الإسلام دينا ، وسلمت له مقادتها يقودها إلى حيث يشير به عليه الوحى من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقِّب على حكمه معقب ، وهى قيادة لم ينلها فى قبيلة أجنبى عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذى يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشاً غطفانىّ ، ولا غطفانَ تميمىٌّ . هذا كان بين القبائل التى تنتمى إلى أصل واحد ، كالقبائل التى يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمى إلى أصلين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية (٣٨) .

كان فى بلاد العرب نوعان من القبائل : عدنانية ، ويمانية ، نزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سَيْل العَرِم إلى جهات كثيرة من الشمال ، فحافظت على لهجتها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتا الأوس والخزرج اللتان عمرتا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قحطانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تضعا على رأسيهما زعيما عدنانيا ، تلك كانتا تعدانها مسبة لا تزول عنهما وَصْمَتها ما بقى الفرقدان . فكان قبولهما لزعامة محمد ﷺ وهو من صميم قريش ، غير آبهتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبا فى نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عَزْوه إلا إلى عظم سلطان الإسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الإسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تينك القبيلتين ، فبقى منهم قوم على كفرهم باطناً ، وإن كانوا التحفوا الإسلام ظاهرا ، وأولئك كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى على النبى ﷺ وبعض أخصائه ، ولكنه كان يقبل منهم ظاهرهم ، واكلاً سرائرهم إلى الله ، ما داموا خاضعين لحكومته ، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته . فكن ضررهم ينحصر فى حل عزائم المؤمنين ، إذا دعاهم الرسول للجهاد ، بنفث الذعر فى قلوبهم ، وبث اليأس فى نفوسهم ، بالتهويل فى قوى أعدائهم ، والمبالغة فى عددهم . فإذا لم تفلح وسائلهم فى صرفهم ، عمدوا إلى ما هو أفعل فى إفشالهم ، فخرجوا معهم ، حتى إذا تلاقى الجمعان فى ساحة الوغى تبادروا إلى الهزيمة ليجرُّوا المؤمنين معهم ؛ وهو تدبير خطير يؤثر فى القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير ؛ فكان النبى ﷺ يغض الطرف عن فعلهم ، ويقبل واهن أعذارهم .

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد المسلمون إلى بلدهم ، عادوا إلى سابق إرجافهم ، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم ، وروجوا من سيء المبادئ ، وسقيم الآراء ، ما تتسمم به النفوس ، وترتبك العقول ، فكانوا أشد على النبى وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته ، المتوعديه بحل جماعته . كل هذا ولا يأذن ﷺ فى اصطلامهم لاتقاء شرهم ، لمخالفة ذلك للمبدأ الإسلامى العظيم من قبول الظاهر ، وترك الباطن لعلاّم السرائر ، وهذا مبدأ جليل القدر ، بعيد الأثر فى تربية الأمم على احترام الحياة البشرية ، وعدم الإسراف فى سفك الدماء جريا وراء الظنن الحزبية . والأمة التى تربى على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول ، تمضى فى تطبيقه فى جميع

أدوارها ، كتقليد من تقاليدها الاجتماعية ، فتتقى شرور التناحر فى حياتها المدنية ، حيث تختلف المبادئ ، وتتباين المذاهب ، فلا تتصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر . وهذا الضبط للنفس من أجلّ ما تتصف به الأمم الرشيدة ، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية ، وهو كما ترى وليد الديانة الإسلامية .

ومما يوجب الدهش فى أمر الاحتمال الذى أمر به الإسلام حيال المنافقين ، أن ما وصفهم به القرآن من المخادعة والمراوغة ، وبذر بذور الفتن بين الفئام ، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين ، مما لا تطيقه إلا أمة بلغت من ضبط النفس ، وكبح الهوى ، درجة ليس بعدها مرتقى . ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم فى الكتاب الكريم إدلالاً على ما نقول :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (أى إلى إخوانهم فى الكفر) قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) .

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات (٨ – ١٤) .

(٢) سورة المنافقون ، الآيات (١ – ٤) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ، وَللهِ خَزَآئِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم فى صميمها ، والنبى غير مبال بهم ، حتى تفاقهم شرهم ، فنزل فى حقهم قرآن يهددهم بأخذهم بالعنف ، فقال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً . مَّلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ (١) ، أى لئن لم يقلع المنافقون عما هم بسبيله من المفاسد ، لنسلطنك عليهم ، فيضطرون للجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الإسلام على مطاولتهم حتى لم يبق فى جزيرة العرب من يصغى إلى إفكهم ، ففنوا فى جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الظنن والاتهامات ، حتى تتغلب الآراء الجديدة ، فتثوب الجماعة إلى رشدها ، وتستقر الأمور فى نصابها (راجع تواريخ الثورات الكبرى) .

* * *

لم تكن عوامل الفساد فى جماعة المسلمين الأولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت تجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وقد ساءها أن تتأسس فى يثرب ديانة يُتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبيلتى الأوس والخزرج ، فتجليهم عن البيئة التى اتخذوها دار هجرة لهم ، وتعيد لهم عهد الاضطهاد الذى ذاقوا مرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوأتها العداء ما استطاعوا إليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الإسلام يخالطون المسلمين ، ويسعون بينهم بالنمائم والإرجافات ، وينقلون إلى الآخرين ما يقفون عليه من الأخبار ، وما يترامى إليهم من الأسرار .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية (٧) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان (٦٠ - ٦١) .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أحبار متضلعون فى الثقافة الدينية ، وعارفون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الإسلامية كان يتوقف على تأثيرها فى العقول والقلوب ، وهؤلاء الأحبار كانوا لا يَنُون فى مهاجمة عقائد الإسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدهما ، فكانوا بهذا العمل مثيرين على الإسلام حربا أدبية ، أفعل فى الصد عنه من الحرب المادية ؛ فلو كان فى مكان النبى ﷺ الأمة العربية بأسرها فى أميتها وجاهليتها وبعدها عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأحبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، فى مستوى أمثالهم من رجال الدين فى البيئات المتحضرة . واليهودية أقدم الأديان الساميَّة بعد دين إبراهيم ، وأهلها يدّعون أن ما جاء بعدها قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروّجون هذه الدعوى إلى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينزل الإسلام فى هذه البيئة من النضال الدينى ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه لم يستمد وجوده من دين سابق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذى استمد كل دين مادته منه ، كما قرر ذلك بقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

لهذا السبب جاءت فى القرآن آيات كثيرة جداً فى مجادلة اليهود وإلزامهم الحجة ، فسردت ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبل موسى عليه السلام ، وما كانوا يقابلونهم به من الالتواء والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ، ثم عقبت ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهروه فى مواطن شتى من العصيان والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع فى أسر الأمم الفاتحة ، حتى أدى ذلك إلى هدم هيكلهم المقدس مرات ، وتشتيتهم فى الأرض ، وضياع استقلالهم فى عقر دارهم ، يتخلل ذلك ما عمدوا إليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل

---

(١) سورة الشورى ، من الآية (١٣) .

والتحريف حتى حللوا كثيرا مما كان محرما عليهم .

فهذه الناحية من القرآن الكريم كشفت عن أصالته فى سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ، وعن تحلّيه بضروب المناعات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التى اقتضاها الجدل بين الدينين أبانت بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة واحدة ، مرتبطة بأرض معينة ، لا يصحّ لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة فى أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثانى على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع لكل ما بلغته من خير فى جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به من مزية الإطلاقية ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

فى هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الإسلام عن وجوده وأقام دولته ، ومنها امتد إلى أقطار الأرض ، ولما يبلغ مداه بعد (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثالث ، شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ .

الحرب فى شِرْعة الإسلام

لما استقر النبى ﷺ بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزّها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الإسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ [1] ، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للإنسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ، وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ! أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ،

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية (٨٩) .

ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ . قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور . وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبى يكون كالجرّاح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والإسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتدٍّ بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق فى الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذى وسعت رحمته كل شىء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة فى مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف فى سفك دمائهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مُثُلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حمل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الإجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) ، أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى

---

(١) سورة الحج ، الآيات (٣٩ - ٥١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٩٠) .

(٣) سورة المائدة ، من الآية (٢) .

أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبى ﷺ وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه إلى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم فى حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هنا لابدّ لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الإسلام ضده ، إذ قالوا : إن الإسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا إلى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهى أنزل ليكون رحمة للعاملين .

لا جرم أن الذين يُدْلون بهذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضى ومن عوامل الاجتماع الإنسانى ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يُعرف ليجىء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الإنسان على هذا التدافع كل تَرَقٍّ طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودَعَواهُ ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا . وقد أشار الله إلى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالإنسان : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) . وإنما تفسد الأرض بتغلب

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٨) .

(٢) سورة البقرة ، من الآية (٢٥١) .

الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ﴾ (١) . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قنسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أوَ لم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لمحمد ﷺ فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر إلى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، ودك صروح العدل ؟

يقولون المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟

---

(١) سورة الحج ، من الآية (٤٠) .

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها ما دام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يُتّفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوّه بهذا الحكم . ولو كان ذُكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكرّ على هذا القول بالدّحض ، ولحضّ أهله على عدم الإصغاء إليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الإسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنّة التى وعد بها المؤمنون بدار السلام ، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الإسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الإسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ﴾ (٢) . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لا همّ لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الإسلام بإقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت إليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦١) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٣٩) .

لا فى سبيل شيء آخر . فإذا كانت هذه الأمم التى وصلت من المدنية إلى درجة رفيعة ، تضطر إلى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكوُّن لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ما حُمِّلته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الإسلام بالحرب ، كضرورة لا محيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِّله الإسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كِسَف من الضلالات ، وتنوء تحت آصار من الأوهام ، إلى عهد حرية التعقل والنظر ، والبحث والتدليل ، والمسئولية الشخصية ، وهى الثلاثة الأركان التى ابتنى عليها صرح التطور الأخير للإنسانية المتجهة إلى كمالها المنشود (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٩ هـ .

بدء الصراع بين الحق والباطل
وقعة بدر وما سبقها من المناوشات

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتجاهلها الأولون فيتركوا لخصومهم الوقت الكافى للاستعداد لسحقهم فى دار هجرتهم ، هم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد ، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يغفلوا طرفة عين عن العمل لإضعاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعلها بهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المدد الذى يتمكنون به من الثبات فى مكافحتهم ، وليضطروهم إلى التعجيل بمنازلتهم حتى لا يتخذوا من مطاولتهم عوناً لهم على حل جماعتهم .

فكان أول ما ارتآه النبى ﷺ من وسائل مناهدة الجاهليين ، إيصاد طريق التجارة الخارجية فى وجوههم من ناحية الشمال . وكان من عادتهم أن يتبادلوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول إلى الشام إلا من طريق يثرب ، ندب رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلا ليستولوا على تجارة لقريش وهى آيبة من سورية ، وكان يحرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبى جهل من كبار أعداء الدعوة الإسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص ، وهى قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتال حماتها ، وتصافَّ الفريقان فحجز بينهم أحد رجالات تلك الناحية : مَجْدِىّ بن عَمرو الجُهَنِّى ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبى ﷺ مجدِيًّا على ما عمل ، لقلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبى أن تجارة لقريش فى طريقها إلى الشام ، فندب عُبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلا لاعتراض تلك التجارة . فصادفها بِبَطْن رَابِغ ، وهو وادٍ قريب من البحر بين مكة والمدينة ، فترامى الفريقان بالنَّبْل ، ثم انهزم القرشيون خشية أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كَمن لهم هنالك .

وخرج النبى ﷺ نفسه فى السنة الثانية من الهجرة قاصدا أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . وانتهز بنو ضَمْرة هذه الفرصة فاتفقوا مع رسول الله على التعاون فى الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم باقون على شِرْكهم .

ثم خرج النبى ﷺ بمائتى مقاتل عندما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بُوَاط ، وهى جبال جهة يَنْبُع ، وجد القافلة قد مرّت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلا ، وقد بلغه أن تجارة لقريش فى طريقها إلى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد مرت سالمة ، فعاد إلى المدينة يترقب رجوعها . وقد بلغه أن فى هذه القافلة معظم أموال قريش .

فى هذه الأثناء أغار رجل من أصحاب الغارات اسمه كُرْز بن جابر الفِهْرِىّ على سَرْح المدينة [١] واستاق عددا منها وهرب ، فخرج النبى ﷺ يتأثره [٢] حتى بلغ سَفَوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرزاً قد أفلت . وتسمى هذه غزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فصيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتابا مختوما وأمره أن لا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد فى الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابى هذا فامْضِ حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة فى أن ما فعله النبى ﷺ من استخدام طريقة الأوامر المختومة كان منه عملا لم يسبقه إليه قائد حربى فى جزيرة العرب ، حيث الأمية كانت ملقية بجِرَانها لديهم ، وربما كان عملا لم يسبق إليه فى العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة

---

(١) السرح : المال السائم من إبل وغنم وبقر إلخ .

(٢) يتأثره أى يتتبع أثره .

على مبدأ التجديد الذى جعله الإسلام شعار أهله فى جميع محاولاتهم ، سواء أكانت فى حركاتهم الحربية أم فى محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا فى سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم فى قرون كثيرة ، كما سنبينه فى مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخّياً تنفيذ ما أُمر به ، وقد تخلّف منهم اثنان لإضلالها بعيرا كانا يَعْتَقِبانه . فلما وصل إلى مكان يقال له نَخْلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، فحمل عليها برجاله فقتلوا واحداً وأسروا اثنين ، واستاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم إلى المدينة . فعابهم المسلمون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع فى شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبى ﷺ : أنا ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم . وعابهم اليهود ، وسلقتهم قريش بألسنة حداد . فندموا على ما فعلوا ، فأنزل الله على رسوله فى هذه الحادثة قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [1] فسُرِّى عنهم .

ومعنى هذه الآية : يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم : القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصدّ عن سبيل الله ، والكفر به ، والصدّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنبا أكبر من ذنب القتال فى الشهر الحرام ؛ وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولاً من القتل الذى ارتكبته السَّرِيَّةَ التى يرأسها عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام .

هنا لا نرى بدّاً من لفت الأنظار إلى انتقال خطير فى فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الإسلام عهدا للإصلاح الجَلَل الذى حمّله للإنسانية ، وحمى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية فى خلال الأطوار المتعاقبة التى لا تبقى من الأوضاع القديمة إلاّ أطلالا دارسة لا يكون لها وجود إلاّ فى ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير فى حياتهم الدنيوية .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢١٧) .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذى عابته قريش على قائد السرّية من خَرْقِه حُرْمة الشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجمود والتلاعب معا . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال فى شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهى أنهم كانوا يتقاتلون فى أى شهر حرام أياما ويحرمون القتال على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض لفطر أياما من رمضان ويصوم بعددها أياما من أى شهر آخر ، أداء لما فاته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين فى هذه الناحية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] . وهذا الذى كان يسميه الجاهليون بالنسىء هو إبدالهم أياما عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا فى القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة فى الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا ، يجعلونه حلالا عاما ، وحراما عاما آخر ، وقد زُينت لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدى الكافرين .

والفرق بين الذى كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبنى على الحيلة التى لا تجوز على الجاهلين ، وتنطوى على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التحايل فى حياة الأمم الأدبية ، يفضى إلى إباحات لا تحصى لا تبقى معها شريعة ، ولا يصان معها من العبث أصل .

ولكن الثانى وهو الترخيص فى القتال فى الشهر الحرام ، فقائم على أصول قيمة يبتنى عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب ، ويضع حدا للجمود على الأوضاع ، ويقضى على صفة خسيسة فى النفوس ، وهى التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .

أما الأصول التى يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم فى حياة الجماعات أدبيا واجتماعيا ، فهى :

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٣٧) .

(أولها) أن كل تحليل أو تحريم فى الدين إنما قصد به مصلحة الإنسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلال أو تحليل حرام جرياً مع الهوى . فإذا حدث ما يوجب إعادة النظر فى حِلّية ما هو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، ففى الدين الحق نفسه ما يغنى عن هذا التحايل . والدين فى هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالا وحراما لا يجوز تعدى حدودهما بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدهما فلا يجوز أن يعمد إلى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فإن لم يوجد فيه ما يسوّغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

(ثانيها) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فإن الشيء قد يكون ضروريا أو نافعا أو حسنا فى حال ، ونافلة أو ضارا أو قبيحا فى حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الإسلام كانوا يمنعون النظر فى الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قادتهم إليه ، حتى أصبح الدين فى نظر الناس مع تقلب ضروب التحايلات عليه رسما لا حياة فيه .

(ثالثها) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذى تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبنائه على الأصول المقررة ذات الأثر الذى يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التى تقوم على الأثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمور فى الإسلام يجرى على مبادئ ، ويقوم على أصول لم تُمْلها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملتها مصلحة العالم الإنسانى كله ؛ يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملةً من الوصايا بوجوب تحرى الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلُّب المصلحة العامة وإن ناقضت المصلحة الخاصة .

(رابعها) تقديم المنفعة العالمية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذى يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدى إنما وضع فى الإسلام للمصلحة العالمية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أيا كان نوعه ، فإن الله غنىّ عن العالمين ، وقد جاء فى الكتاب : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [1] ، وقوله :

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (١٨٥) .

﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

فكل وضع دينى أو عمل تقليدى إنما أريد به فائدة العالم نفسه .. وقد جرى الإسلام على هذا الأصل فى كل ما أمر به ونهى عنه ؛ فإنه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها للمضطرين إليها ، فقد قال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) ، حتى أباح للمسلم أن يتظاهر بالصبوء عن الإسلام تفاديا من هلاك نفسه ، فقال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (٣) .

ولكن الأمر على عكس هذا لدى الأمم التى سبقت الإسلام ، فكان الأمر التقليدى لابد من القيام به ولو أتى على نفس الإنسان . فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحايلات والمحللات ما يخجل أن يرتكبه عاقل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما فى الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فتُركت جملة .

ولكن الإسلام دين أنزل ليُعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لابد له من هذه القواعد التى تؤتى أوامره ونواهيه من المرونة ما تسمح له أن يوصى بها فى كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم إليها ، فى الحدود التى قررها لهم فى كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة فى الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية إلى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا فى القرون المتأخرة ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أى حال كانوا حيال التقاليد الدينية خضعوا لسلطان المبادئ الأدبية الخالدة ، مهدرين فى هذا السبيل

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٦) .
(٢) سورة البقرة ، من الآية (١٧٣) .
(٣) سورة النحل ، من الآية (١٠٦) .

الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم فى الوقت الذى يعلنون فيه أنهم يعتدُّون بالأحوال ، ويقدرون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأمم تقيداً بالمبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشددون فى ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والإسلام لم يقرر هذه المبادئ ليتحلل أهله من التقاليد المرعية فى الناحية الإيجابية فحسب ، ولكن فى الناحية السلبية أيضا ، فإنه كما انتصر لعبد الله بن جحش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين فى الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال الخصوم . فقد قتل صحابى فى الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فأخذه النبى ﷺ على ذلك وتبرأ من عمله ، ونزل فى ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابى فى دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاوٍ على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبى ﷺ شبهته بقوله : إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدالّ على أسمى ما يعرف عن العاطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام فى أوجَهِ صحف الدعوة الدينية . وإذا أضاف القارئ إلى ذلك ما يعلمه عن الوحشيات التى استخدمها متحمسة الدينيين غيرالمسلمين فى مقاتلة خصومهم ، والتنكيل بمن لا يدين بدينهم ، حتى أبادوا فى فورة هذه الحماسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل فى الإسلام ، وتنوّر مصدره الإلهى البحت .

وهذا الفهم الجديد للتصرف حيال التقاليد الدينية فى أمر هذه الحادثة البسيطة ، لازمَ المسلمين فى جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويمضوا فيها على ما توجبه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أعملوا أفهامهم – بأمر من كتابهم وبسنة من رسولهم – فلم يتكاءدهم أمر مهما أعضل ، ولا حيَّرهم خطب مهما أشكل ، بل واجهوا الأهوال بصدور رحبة ، ووجوه طلقة ، وعقول عمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعْل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الكفر هى السفلى ، ولكن فى غير عنف يوصم

صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهم يفتح أمام الخاضع له أبوابا من التخيلات تورطه فيما كان فى غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادئ القويمة إن فهمت على وجهها ، وأُخذت على حقيقتها ، وقام بتلقينها رسول جمع من عقائل الصفات الإنسانية ، وخصوصيات النفسية النبوية ما جمعه النبى صلّى الله عليه وسلم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ .